

مريم

مريّة عن الفرنسية من الرسائل البانية

في سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) كان في الناصرة رجل نصراني اسمه يوسف . وكان قد تزوج امرأة كنعانية اسمها مريّا . فبارك الله اقرانها وولدت مريّا بدمستين ابنه حسنة فحفظ البدر بطلعتها البنية . ولم يجد لها ابوها عن الاسماء ما يذكر هذا الجمال البديع ، والمنظر النسيم ، الا مريم ، تلك المذكرة التي قضت بضعة اعوام في هذه البليدة عينها فساها باسمها . فحق ان يقال عن كل من هين المريمين :

ولو كانت النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال .

نشأت مريم بين اترابها وهي يتيمة كالبدرة بين الكواكب الزاهرة ، لان جلالها لم يكن الا امراً لاشان له بالنسبة الى ما اتصفت به من الاوصاف التي تجعل الابنة في مقام رفيع من الحظوظ . عند الناس بحسن الآداب وتوخي الفضائل والمبرات ، حتى تاهزت السنة الثانية عشرة من عمرها ، ففقهها الاب انطونيو رئيس دير الرهبان الفرنسيين اصول الدين واعدما لتناول الاول .

في أثناء تعليمها مبادئ الديانة لاحظ رئيس دير اللاتين ذكاه هذه الامة ما ميزها عن سائر اترابها . ففرض على والديها ان يعلمها القراءة والكتابة . ففرضوا بهذه البشرية فرحاً لا مزيد عليه . واما مريم فكانت تطير من فرحها لما عرفت ما نواه ابواها ومرشدها . لانها كانت تقول لمن يسمعها : ما سعد حظي اذا تمكنت من مطالعة

الاعجيل الجليل كما امكنني ذلك . وما اعظم فرحى حينما اتبع الكاهن
عند تلاوته التزويل العزيز وانا اسمع كلام الله وقت القداس في الكنيسة
التي هي بيعة مريم ومحل تبشيرها باجل البشر .

ماضت ثمانية اشهر على ابتدائها بالدرس الا وابتقت مريم اللغة
العربية والايطالية والاسبانية قراءة وكتابة . فهل بمد هذا
الدليل الواضح مايقى شكاً في توفد فؤاد هذه الغادة الفيدآء الغربية
الذكاء .

وان خفيت كانت لعينك قرّة وان تبدي يوماً لم يعمك عارها
من الحفريات البيض لم تر شقوة وفي الحسب المحض الرفيع نجارها
فلما رأى الاب انطونيو هذه الابنة تتلقف من فيه العلم تلقفاً ،
اوقفها على وقائع التاريخ وعلى علم تقويم البلدان وتخطيطها فشدت شيئاً
منهما . وكانت كلما تعلمت بعض العلوم يتسع لعينها افق المعارف وتبسط
تخوم افكارها وتمتد الى ابعد الاصقاع . والخلاصة انها كانت تزيد علماً
وفضيلة كلما قدمت سناً . لان العناية الصمدانية كانت قد جادت عليها
بعوارف العقل والذكاء فزاد فؤادها توفداً المتبارة على الدرس وتعاطى
اطراف العلوم . ولما بلغت السبنة الخامسة عشرة من عمرها اصيبت
ابنة يوسف خوداً من اشهر الخود بمضاه ذكاتها وصدق اطلاعها على
جل معارف القوم .

ذلك هو وصف مجمل ما ازدان به عقلها الناقب واما محاسنها
الظاهرة فلا يصورها قلم ولو كنت مصوراً ماهراً او كاتباً جليلاً .

على انه مالا يدرك كله، لا يترك جله. فكان قوامها خطوط بان . في قراح من
 أرض لبنان . وشعرها الاسود الفاهم، يضحم كل شاعر ناظم :
 اضفيران على بياض خدودها او في كتاب الحسن سلسلتان
 اوليتا العبدن اقبلتا معا . او من قصائد مملقتان
 وكان ثمرها عبارة عن نضدين من اللآلي الغوالي . يزيد ماها
 بريقاً برمان من الارجوان . امحياها فكان آية في حسن التقطيع كأنه
 بيضة غضة، او بيضة في روضة، ولونه لون السنبل اذا نضج . وكان
 ثوبها الازرق . يشبه حسناً . كيف وقد :

لبست حينئذ الغوير بنفسجاً يا ربنا صنفاً عن الميمان
 قد حل لون الحسن في لون الهوى الذي عذرى بالافرنج والسريان

وكان يجلها ازار يبرزها للناس قرأ من الاقار، لا سكتاً من سكان
 هذه الديار. واما آدابها فكانت ايضاً من هذا الطرز العالي البديع قائما
 كانت حليلة، ودبية كالحمامة، رقيقة الشعور والقلب، تفيض من طرفها
 اذا مشت، ومن صوتها اذا تكلمت. واذا جدت عليها بقطرة من الندى،
 كانت لك اشكر من بروقة. وهي مع ذلك في ابد ظاهية من السذاجة
 وفي اعلى مقام من الطهر والصفاء . وهذه المناقب والحصال الحميدة
 كانت تزدها حسناً وبهاءً. ولهذا كان اذا نظرها الناظر يظن انه يرى
 ملكاً من التور، او زادة من حور القصور . وكل الناس كانوا يقدرونها
 حق قدرها لهذه المحاسن الفريدة التي نحت بها، الا هي قاتها كانت تجهل
 نفسها .

وهل احتاج بعد هذا التفصيل المجمل الى ان اقول لك ان اهل الناصرة من مسلمين ونصارى كانوا بمزونها اعظم الاعزاز، ويحبونها الحب العذرى، فوق ما يدور في الخلد .

وكان يوسف ومرتاً يشكران العناية الالهية على كونها جادت عليهما بهذه الخريدة الفريدة، بل قيمة الدرر الوحيدة، وكانا يطلبان الى الله ان يصونها من كل شائبة لتكون سعيدة في الدارين .

وصكان من عادة مريم الغادة ان تجتمع في بيت اهلها اترابها الناصريات، وتفقهن اصول الدين على الاسلوب الذي تلقته من الاب انطونيوس . وكانت تفعل هذا الفعل عن طيبة خاطر وبغيره تنقد اتقاداً .

وكانت قيدهم اعظم قائدة، لما كانت تلقيه عليهم من الشروح لتؤيد بها تلك الاصول الدينية في القلوب الفضة، وكل ذلك يخرج من فيها عفواً بدون تعمل او تصنع لانها كانت تتكلم عن كثرة حبا لله عز وجل لا غير . وصكانت تلك النفوس الناشئة تتلقى تلك الافادات تلقى الوردة المعطى لندى الصباح . وتفعل فيها الفعل المكين .

ولو رأيت مريم بين اترابها لقلت هذه ارزة لبنان بين سائر اشجار الجنان . اذ انها كانت تقضى معظم نهارها في تعليم بنات الناصرة الخياطة والتطريز، ومطالعة الكتاب العزيز، وخدمه كنيسة القديسة مريم . وبما كان يطيب لها مناجاة العذراء في مصلاها في مفارقة البشارة، حتى ما كانت ترى الا هناك كلما دخلت تلك البيعة، لان هناك ظهر ملاك الرب لابنه يواكيم ليشرها بانها تلد للعالم مخاص الامم وان هذا لم يرد ذلك

الموطن مزيناً مثلما كان يرى في عهد تردد الغادة اليه ولا سيما انها
تشهد فيه النظافة فوق مألوف العادة .

ومن جملة ما كان يذكر لهذه الابنة الصالحة في هذا المعبد انها
كانت طرزت سترأ ابيض بقي مدة طويلة حول دمية العذراء مريم
الموضوعة على الهيكل، وكانت اوانى البلور الموضوعة على المذبح
ملوءة ازهاراً واوزاداً وانواع الرياحين، تقطفها بيديها الرخصتين على
منعطف هضبات الناصرة بينما كانت ترنم بصوتها الشجي انواع الترانيم
العذبة، ونور القناديل الضئيل يحيل للسامعات اترابها انهن يفردن معها
تفريد الهزار، عند ميثاق الانوار . واغلب تلك الاحسان الشجية
كانت طلبة العذراء وسائر الاناشيد التي يدور موضوعها على
محاسن العذراء مريم وفضائلها . وكان كل من يسمع صوتها الزجل
ويشاهد مجامعها الفتانة يندفع الى ان يقول رغماً عنه ما سمع يقال عن
سويتها العذراء الحسنة : يا نجم الصبح، ووردة سرية، وملكة العدل،
وهيكل الحكمة ، ادعي لنا .

ونحن لا نريد ابدأ ان نقيم مناسبة بين هذه الابنة الالية، وبين
سويتها العذراء النبوية . فكلما نقوله هو من باب الخيال، بالنسبة الى
الجمال . او من باب الصورة الى الحقيقة وهل من مناسبة بين ابنة
خاتمة الذكر فقيرة حقيرة وبين تلك البكر التي سحقتم برجالها الطاهرة
راس الحية الجهنمية . واطابت مجد ابن آدم الساقط الى سابق عمره، وسامق
فخره . هل من مقابلة بين ابنة هي كالزهرة ابنة اليوم الذابضة الزائلة

وبين تلك الزهرة التي يوضوع منها روح الحياة الخالدة . هل من مفاضلة بين فادة لا تعرف الا في قرية وبين عذراء طبقت الدنيا شهرتها وردد اسمها الافوام وارتفع مرشها في اعلى السماء . من هي مريم ابنة يوسف بالنسبة الى مريم ابنة يواكيم . ابنة يوسف فقيرة حقيرة . وابنة يواكيم غنية ثرية . وعن كثر فضيلة كلتيهما اتكلم لا عن كثر الاموال الفايه . ابنة يواكيم رمزها القمر ، لان القمر يسلي بانواره الذهبية من نفوس في البحار الفكرية او يفرق في لجج الاحزان المضية . ابنة يواكيم رمزها الزهرة ، ذلك النجم الذي يشع ضياء يجلو صدى القلب وينعش الفواد . ابنة يواكيم رمزها الشمس لانها بنور هداها ومحياها تطرد ظلمات الضلال الى حيث لا رجوع منه .

نعم وان لم يكن مناسبة بين الزهرتين الزاهرتين ، الا اننا نقول انه يوجد بعض الشبه بينهما : فابنة يوسف ولدت كما ولدت مريم العذراء في وادي الناصرة . وكانت تقضى ايامها كالبتول الام في البيع والكنائس متذكرة في عملها هذا تلك التي قد تسمت باسمها الكريم العظيم . — ان ذوق ابنة يوسف واشغالها وعوائدها تنظر الى مثل تلك الاعمال التي كانت تأتها ابنة يواكيم . هذا فضلا عن ان جمال هذه الابنة وسناءها وبهاءها وخفرتها يذكرنا محاسن تلك البتول التي قيل عنها : انها بهية تبهر الاعين والتي قال عنها القديس ديونيسيوس الاربوجامي : اني لولا علمي انه لا يوجد الا الاله واحد لسجدت للعذراء سجودي لمعبودة .

اصفر الحصادت عشرة عشرة مرة على جبال الجليل وفي اوديته منذ
ولدت مريم بنت يوسف وبعد ذلك جاء الطاعون تلك الطامة الكبرى
التي تحفر القبور في بلادنا الشرقية وتجرف النفوس جرفاً وتلقيا في
المدافن الفاغرة أفواهاها . ومن جملة من اخذه سيل الموت او احتره
سيفه ام مريم . فكانت هذه الوفاة بمنزلة ساعة نزلت على هذه المظلومة
لأنها كانت تحب والديها محبة لا توصف بعد هيامها بالله وبالعذر آ مريم .
بيد انها لما كانت متمسكة بعروة الدين الوثيق كل التمسك سلمت امرها
بيد خالقها متكلة على عنايته ، وعلى ان امها انتقلت من دار الفرار ، الى
دار القرار ، وقد فازت بالنعيم المقيم . *تكملة تاريخ علوم مريم*
وبعد ان مضى على هذا الحادث المشؤوم سنة اشهر وتصرفت
ثلاث ليالٍ بعد عيد جميع القديسين تذكرت مريم احوال الموت وقضاءه ،
وتجددت قروح قلبها المصاب بانواع الآلام ، لان في تلك الايام
تذكر النصرانية جميع موتاها وتستمطر البركات على قبورهم .
ومن غريب الاتفاق ان وجه السماء الهاشي السافر في اغلب بلادنا
الشرقية امتقع لونه ، وتفضن جبينه ، واكفهر سحابه ، وتناقل ضبابه .
فضاق الافق على منفسحه ، واحتجبت الشمس كأنها لم تكن شارقة .
وما زاد في هذا المنظر حزناً وكآبة تنثر اوراق الاشجار . وسكوت
الاطيار . وهبوب الارباح . بين الادواح . هبوباً تتلاعب فيه الاوراق
اليابسة . وتسمعك اصواتها الماثثة كأنها حفيف الانفى . اوسحق المليى .
لها تابع